# الباب الرابع عشر

## نحو النهاية

انى ذاهب ولكن الحكومة ستبقى بعدى
« لويس الرابع عشر »

---

فى أوائل شهر فبراير سنة ١٧١٥ أخذت فرساى تستعد لاستقبال مبعوث ملك العجم فأعدت الأروقة الزجاجية بالأرائك الجميلة ، وفرشت بالسجاجيد البديعة المطرزة بالذهب ، وزينت باللوحات الفنية المختارة ، ووضع مقعد خاص للويس الرابع عشر ، ووجهت الدعوة الى الأميرات والسيدات وكبار رجال الدولة ، وطلب الملك من المدعوين أن يتحلوا بأحسن ما عندهم من أزياء للمبالغة فى الحفاوة بسفير ملك من ملوك قصص الف ليلة وليلة .

وفى اليوم التاسع عشر من الشهر المذكور وطىء سفير ملك العجم أرض فرنسا ورحب به مستقبلوه من رجال البلاط وضباط الحرس الملكى ولكنه أظهر لهم منتهى الخشونة والقسوة فتألموا أشد الألم ولما لاحظ ذلك اعتذر لهم عن تصرفاته المعيبة لتوعك مزاجه

ولما وصل الى قصر فرساى عزفت الموسيقى ودخل الى فناء

القصر ممتطيا صهوة جواد وترجل أمام السلم المؤدى الى مكان الاستقبال ، وفى هذه اللحظة قدم لويس الرابع عشر وجلس على مقعده الوثير فى انتظاره .

واستقبل السفير دوق أورليان ومن بقى على قيد الحياة من أمراء الأسرة المالكة ورجال البلاط وراهب فرنسى كان يقيم فى بلاد العجم مع أعضاء ارسالية فرنسية للتعليم والتبشير ، وتقدموه الى حيث

حفلة استقبال سفير ملك العجم

ينتظره ملك فرنسا العظيم ، فألقى خطبة فاترة لا تتلائم مع مكانة لويس الرابع عشر ، وتولى الترجمة هذا الراهب الفرنسى لأنه كان الشخص الوحيد الذى يعرف اللغة الفارسية فى فرساى ، وبذل كل ما أوتى من لباقة وذكاء فى ترجمة خطبة السفير بأسلوب لائق حتى لا يغضب الملك

وانتهت الحفلة بعد وقت قصير بين ذهول الحاضرين الذين كانوا يتوقعون أن يروا عجبا أو على الأقل مشهدا من مشاهد فرساى السابقة ، وعلى أى حال فقد بددت بعض الوجوه السائد فى فرساى منذ عهد بعيد ، والحزن الكامن فى القلوب على المتوفين من أفراد الأسرة المالكة

ولم تخلو حفلة استقبال سفير ملك العجم من بعض الطرائف ، فقد كان هذا السفير نحيفا ، شاحب الوجه ، بادى التعب ، شارد الفكر ، ولم يتأثر بعظمة قصر فرساى ، وكان ينوء بعب ملابسه الثقيلة وبالجواهر الرائعة التى كان يتحلى بها والتى قدرت قيمتها بأكثر من اثنى عشر مليون جنيه ، فكان بمثابة معرض متحرك للمجوهرات النفيسة الجميلة ، الدقيقة الصنع ، البديعة الفن ، فخلبت الأبصار ، وجلبت المرح والغبطة ، وكان اتباعه يشبهونه من جميع الوجوه .

وتبعا للعادات والتقاليد حمل السفير معه هدايا ملك العجم الى ملك فرنسا وكانت تتألف من أربع لآلىء لامعة تمتاز بالجمال ، وماثتى فص من الفيروز ، وصندوقين من الذهب مملوئين ببلسم لشفاء الجروح وبديهى أن هدية كهذه لم تحز رضاء لويس الرابع عشر وانما قبلها مراعاة لشعور السفير .

وكانت هذه آخر حفلات فرساى فى عهد لويس الرابع عشر ، فلقد ودعت بعدها عهد المرح ، وعهد الحفلات الصاخبة وعهد الأنوار المتألقة ، وعهد الشباب ، هرم رجال الحاشية ، واختفت الابتسامات الفاتنة ، فلم تعد توجد إلا وجوه مجعدة ، أضناها الجهد والأسى ، وسيقان مقوسة لاتصلح للرقص ، ومع كل هذا لم تقف الآله الملكية عن العمل ، فاستمر الملك يؤدى واجباته وأعماله حسب المنهج اليومى مع تعديل بسيط وهو التبكير فى الذهاب الى مخدعه .

فى آخر ابريل ذهب الملك الى قصر مارلى حيث أخذت حالته الصحية فى التحسن فخرج للصيد وهو يقود عربته الخاصة ، وعندما كان يتنزه فى حدائق القصر ، كان يقف عند كل مقعد ، وكل خميلة ، وأمام كل شجرة ، يتذكر أحبائه الذين كانوا يمضون معه فى هـــذه الأمكنة أوقات المرح والسرور ، فلا يسعه ، وهو يستعرض فى مخيلته أيام اللهو والحفلات ، كما يستعرض فيلما يمثل حياته الماضية ، إلا أن يترحم عليهم ، لقد كان الدهر قاسيا ففرق بينه وبين من ارتبط معهم قلبه بأجمل الذكريات وأسعدها .

وفى ٣ مايو حدث كسوف فى الشمس ، وكان الفلكى « كاسينى » قد أحضر الى الملك منظارا فامضى فترة طويلة فى مشاهدة هذه الظاهرة العجيبة التى يراها لأول مرة فى حياته .

وذات يوم بينما كان الملك مجتمعا مع وزرائه ، أخذ « تورس » وزير الخارجية يتلو على مسامعه الأنباء المنشوره فى بعض الصحف

الهولندية ، وبعد أن بدأ يقرأ له أخبار لندن توقف فجأة عن القراءة فسأله الملك عما حدث ، فلم يجب . وهنا صمم الملك أن يرى ما اضطره الى التوقف عن القراءة وأخذ بنفسه الجريدة فقرأ أن الانجليز يتراهنون فى لندن على أن ملك فرنسا سيموت قبل أول سبتمبر سنة ١٧١٥ ، فتظاهر بأنه لم يأبه للأمر ، وطلب من وزيره أن يستمر فى القراءة ولكنه فى الواقع تأثر كل التأثر ، حتى أنه عندما جلس الى المائدة ليتناول غذائه لاحظ المحيطون به أنه لم يأكل كعادته لفرط تأثره من النبأ الذى قرأه ، فكان مشتت الفكر . بادى الوجوم

وفى أوائل يونيو عاد الى فرساى ، وما لبث أن اشتدت عليه وطأة المرض . وكان فى اليوم الثامن من هذا الشهر فى كل عام ، يفد المرضى من كل أنحاء فرنسا الى قصر الملك فيخرج اليهم ويلمسهم فينالون الشفاء حسب اعتقادهم ، ويرجع هذا التقليد الى أيام القديس لويس وهو ينص على أن ملك فرنسا يحضر الصلاة فى الكنيسة فيصبح قادرا على شفاء المرضى وعلى الأخص المصابين بمرض الغدد فيشفيهم بمجرد لمسهم وهو يقول : الله يشفيك والملك يلمسك .

وقد حرص لويس الرابع عشر منذ أن تبوأ عرش فرنسا على ممارسة هذه العاده والتمسك بها ، ففى ٨ يونيو ١٧١٥ كان طريح الفراش لايستطيع الحركة ولكنه لم يشأ أن يحرم المرضى المجتمعين فى فناء قصر فرساى ، يحدوهم الأمل فى الشفاء ، من تحقيق أمانيهم ، فتحامل على نفسه وتدثر بملابس ثقيلة بالرغم من اشتداد حرارة الجو ، وخرج

الى فناء القصر وأدى واجبه نحو المرضى من شعبه فلمس كل واحد منهم قائلا : الله يشفيك والملك يلمسك ، وبذلك كان راضيا تمام الرضاء.

ولازم الفراش فترة طويلة كانت صحته خلالها تتحسن ثم تسوء وهكذا ، فلم يستطع أن يتبع جدول عمله اليومى ، وعندما كان يشعر بالتحسن والنشاط يخرج للتنزه فى حدائق القصر . ففى ١١ أغسطس عقد مجلس الدولة وبعد انتهاء الجلسة خرج يتريض فى حدائق تريانون وكانت آخر رياضة له .

وفى اليوم الثالث عشر من نفس الشهر كان لا يقوى على الحركة فحمله رجاله ليشهد توديع سفير ملك العجم ، وبكل صعوبة استطاع أن يقف ليصافحه ، فكانت حالته تبعث على الأسى والألم ، حتى أن كل من شهده وهو على هذه الحال لم يستطع أن يحبس دموعه ، لقد اضمحل تماما ، وأصبح من الموت قاب قوسين أو أدنى .

ومع كل هذا لم يفقد الأمل ، كان يطلب أن يوضع على مقعد متحرك ليذهب الى غرفة مدام دى مانتينون ، ليستمع الى عزف على الكمان ، وكان يقصر طعامه على الفاكهة ولا يشرب إلا بعض أقداح من الماء القراح .

وكان يشرف على علاجه الطبيب فاجون . الذى سبق ذكره . واضطر الحال الى الاستعانة باشهر رجال الطب فى باريس ، ولكن لما كان فاجون هذا ، بحكم وظيفته ، يتمتع بنفوذ كبير ، فان الأطباء لم يعارضوا آرائه ولم يحاولوا أن يغيروا العلاج الذي قرره

وفى ٢٢ أغسطس أقيم عرض لقوات البوليس فى فناء القصر فرساى ، وتمنى لويس الرابع عشر أن يستعرض القوات من نافذة غرفته ولكنه لم يستطع ، فاستأذن ولى العهد أن ينوب عنه فى الاستعراض ، فسمح له ، وكانت هذه أول مرة يظهر فيها ولى العهد الذى لما يتجاوز السنة الخامسة من عمره ، مرتديا الزى الرسمى فى حفلة رسمية

ولى عهد فرنسا يستعرض قوات البوليس

وكان لويس الرابع عشر ، وهو يسير نحو النهاية بخطى سريعة يقول لمدام دى ما نتينون : لقد كنت اعتقد أنه من العسير على أن أموت .

وفى ٢٦ أغسطس استدعى ولى عهده وقال له :

يا بنى ، عما قريب ستصبح ملكا عظيما ، فاعمل على توطيد دعائم

السلام مع جيرانك ، وأعطى ما لله لله ، واتبع دائما النصائح السديده وابذل كل ما فى وسعك لتوفير أسباب السعادة للشعب ، الأمر الذى لم استطع بكل أسف أن أؤديه بسبب العسر المالى والحروب الطويله

ثم عانق الطفل الصغير وقال له :

انى أباركك يا بنى من كل قلبي

وبعد ذلك ، لم يتبق أمام الملك الراقد على فراش الموت إلا ساعات قليلة امضاها بحضور مدام دى مانتينون أو مع رجاله المقربين

وذات مرة انتابته غيبوبة طويلة ، فلما ثاب الى رشده رأى بجانبه غلامين يبكيان فقال لهما :

لماذا تبكيان ، هل اعتقدتما انى مخلد

وفى الساعة الثامنة من صباح يوم الأحد أول سبتمبر سنة ١٧١٥ لفظ لويس الرابع عشر نفسه الأخير ، قبل أن يبلغ السنة السابعة والسبعين بثلاثة أيام وبعد أن حكم فرنسا لمدة اثنتين وسبعين سنة

ولما وصل نبأ موته الى مدينة فينا ، أعلنه الأمبراطور شارل السادس الذى كان عدوا له طول حياته ، الى رجال الحاشية بهذه الكلمة البسيطة التى كانت تعنى من يريد :

أيها السادة ، لقد مات الملك